التحديات التي تواجه المسلمين في المجتمعات الغربية

بات وضع المسلمين في الغرب - من وجهة نظر مفكري الدول الغربية وساستهم- يشكل تحدياً حضارياً صارخاً يقوّض دعائم المفاهيم الغربية التي يعتزون بها، ويزلزل المثل العليا التي شيّدت على أساسها مظاهر حضارتهم، ونسجت بخيوطها طبيعة علاقاتهم الاجتماعية، وصبغت بصبغتها مظاهر حياتهم العامة والخاصة.

لقد روى مداد أقلام الكثيرين من مفكري الغرب بذرة الحقد على المسلمين لتنمو وتكبر وتثمر الرعب من كل شيء يمت إلى الإسلام بصلة، فكانت ثمرة (الإسلامو فوبيا) هي الثمرة المرة التي تذوقها الغربيون وظنوها من ثمرات الإسلام والمسلمين، غير مدركين أن المسلمين يتعرضون لموجات متتالية من التشويه والتحقير والإهانة والاستعلاء، وما كتابات (دانيال بايبس) مؤسس نظرية **الرعب الإسلامي** في صحيفة (نيويورك صن وجيروزالم بوست)، وما بثّ فيهما من سموم فكرية منذ عقد من الزمن، محذّراً الأميركيين والأوروبيين من خطر المسلمين (وأسلمة) المجتمعات الغربية، وبالتالي وجوب التخلص منهم، إلا مثالاً من أمثلة كثيرة تعكس مدى التعمية المتعمدة التي ينتهجها ساسة الغرب على شعوبهم، فالأحزاب السياسية أصبحت تتبنى سياسة التضييق على المسلمين وكتم أنفاسهم، والنيل من شعائرهم ومعتقداتهم، فقد طالب (حزب الشعب الدنماركي) بترحيل المسلمين من البلاد، وكذلك الأمر بالنسبة للحزب (الاشتراكي الليبرالي)، وفي هذا الشأن أصدر مركز الأهرام للدراسات تقريراً عن أوضاع المسلمين في أوروبا لعامي (٢٠٠٤م- ٢٠٠٥م) أكد هذا التقرير الحملة المسعورة من قبل الأحزاب والجمعيات الأوروبية اليمينية على المسلمين هناك، حيث جعلت هذه الأحزاب أبرز أهدافها طرد المسلمين، وأضاف التقرير أن المشاعر العدائية برزت بوضوح في وسائل الإعلام الفرنسية والقنوات التلفزيونية حيث تعمدت إبراز الإسلام بصورة مشوّهة مملوءة بالمغالطات، ولقد حذّر الخبير الاستراتيجي الأميركي (صمويل هنتنجن) من تنامي المد الإسلامي في الغرب من خلال استقرار الجاليات الإسلامية واستيطانها.

لم يقتصر الأمر على الجمعيات والأحزاب إذ تعداها إلى الرؤساء والرموز الدينية، فتصريحات بابا روما ما زالت تقرع آذان المبهورين بحوار الأديان من (علماء ومفكرين إسلاميين). وتصريحات (سركوزي) واستصداره القرارات المتعلقة بمحاربة الحجاب ما زالت حلقاتها تتوالى تباعاً، وإقرار غالبية الشعب السويسري بمحاربة المآذن تعكس الصورة الناصعة للموقف الذي يجب أن يتخذه المسلمون في جميع بقاع المعمورة حيال هذه الحرب المسعورة على المسلمين هناك.

لقد عزا الكثيرون من ساسة دول الغرب ومفكريهم هذه الأمواج العاتية إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتبعهم بكل أسف بعض (المفكرين المسلمين)، والحق أن تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر لم تكن سوى الشعرة التي قصمت ظهر البعير المثقل والمثخن بأحمال تراكمت بعد صحوة

إسلامية عالمية أبرزت تفوق الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، وجعلت المسلمين هناك يظهرون مشاعر الاعتزاز بشعائر دينهم من خلال التمسك بها والتفاخر بسموّها.

إننا لا نتحدث اليوم عن تواجد المسلمين في أوروبا كتواجدهم يوم انطلقوا فاتحين وحاملين مشاعل الهداية لأهل تلك البلاد، حيث دانت لهم الشعوب واستظلوا بأفياء حكم إسلامي ملأ الأرض عدلاً ونوراً من الأندلس إلى مشارف روما وفينا، ثم ترك المسلمون بعدها آثاراً شامخة تعكس مدى الارتقاء الذي شاد المسلمون صروحه بعد أن أرسوا أسسه وأصوله.

كما أننا لا نتحدث عن تواجد إسلامي مغلوب على أمره عاشه الجيل الأول من المهاجرين إلى بلاد الغرب، حيث لجأ أكثر من (مائة وخمسين ألفاً) من المسلمين عقب سقوط الأندلس إلى جنوب فرنسا، أو ما تبع اتفاقيات إيفان عام ١٩٦٢م، من استقرار أكثر من مليون مسلم جزائري في فرنسا، أو استقطاب العمال من أفريقيا للعمل في المصانع الفرنسية؛ لأن واقع المسلمين المتردي في تلك الأيام قد جعل المفكرين الأوروبيين يتوهمون إمكانية اندماج هذه الجاليات وذوبانها في نهر يتدفق حيوية فكرية وهميّة كان يعيشها مفكرو الغرب وساستهم انعكس بريقها على الشعوب الإسلامية في تلك البلاد، ثم تعداها ليبهر عيون الأمة الإسلامية في بلاد المسلمين.

إلا أن جهود المخلصين العاملين قد أعادت للأمة ثقتها بدينها وعقيدتها، فنبذت ما عداها من عقائد وقيم وأفكار، واستخفت بما خالفها من أنظمة وأحكام، وعادت تلتمس طريق نهضتها وعزتها على أساس دينها النقي الصافي المبلور الخالي من كل محاولات الخلط والمزج والدس بحجج واهية تم إدراجها ضمن ما يسمى بالقواسم المشتركة، وبالتالي كانت ردة الفعل الغربية انفجار قنبلة محشوّة بالحقد والبغض والعداء، قال تعالى: (**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)** [آل عمران ١١٨].

ولم يكتفِ هؤلاء بذلك بل وضعوا آليات للدمج يشارك من خلالها المسلمون في بناء المجتمعات الغربية عن طريق العمل المؤسسي، مقررين أن لا مستقبل لهؤلاء المسلمين إلا مستقبلاً واحداً هو مستقبل الدول الأوروبية التي يعيشون فيها، ناسين أو متناسين أن المسلمين حملة رسالة إلى العالم أوجب الله عليهم فيها أن يحملوا الإسلام كاملاً لغيرهم من الأمم والشعوب ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، وبأنهم أمّة واحدة من دون الناس.

في خضم هذه المتغيرات التي انقلب فيها السحر على الساحر، ورفض المسلمون فيها أن تمتهن شخصيتهم الإسلامية وتذوب في مستنقع الأفكار الغربية، وبالتالي تصبح جزءاً من النسيج الاجتماعي لتلك الدول؛ طرحت سياسة دمج الجاليات الإسلامية في المجتمعات الغربية، **وللوقوف على أبعاد هذه السياسة وما ترمي إليه لا بد من التركيز على الملاحظات التالية.**

أولاً: إن الذي أذكى روح الصراع مع المسلمين هم ساسة الغرب ومفكروهم عندما وجدوا أنفسهم عاجزين أمام مد إسلامي جامح يطال كل المسلمين، بل ويتعداهم إلى غيرهم من الأوروبيين الذين يدخلون في الإسلام بشكل لافت للنظر، وبالتالي فإن سياسة تأجيج هذا الصراع ليست عابرة قد تزول بتملق أو مداهنة أو ابتداع قواسم مشتركة.

ثانياً: إن سياسة دمج الجاليات الإسلامية في المجتمعات الغربية قد تم إعدادها في المطابخ الأوروبية من قبل نفس المفكرين الغربيين وساستهم ولكن بقناع آخر، فهم بلا شك يدركون حاجة

أوروبا التي غاصت أقدامها في وحل الشيخوخة إلى الأيدي العاملة الشابة، إلا أن وجودها يجب أن يحاصر بإطار من التخويف والتهويل والكبح أحياناً، وبسياسة التذويب والدمج والتخلي عن القيم والمبادئ والأفكار أحياناً أخرى، فتضافرت جهودهم بتنسيق مع الأنظمة في البلاد الإسلامية مع جهود أرباب حوار الأديان السائرين ضمن سياسات هذه الأنظمة التي تأتمر بأمر الغرب لكبح جماح المسلمين، وابتداع دين إسلامي المظهر، غربي الجوهر، وبالتالي فإنه **قد بات واضحاً أن السياسة الغربية المتعلقة بالمسلمين هناك تطير بجناحين غربيين:**

١- : جناح الدمج وفقدان الهوية.

٢- جناح الحقد والتخويف بالطرد.

ثالثاً: لقد كان لسياسة الحرب على الإرهاب التي أعلنها بوش الابن الأثر في نفوس هؤلاء فآزروه ونصروه بإصدار الفتاوى التي تتماشى مع محاربة الإسلام السياسي، وتوجب إظهار الذلة والصغار من المسلمين للكافرين في البلاد الإسلامية والغربية، بل وتجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، والله تعالى يقول **(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)** [النساء ١٤١]. ظانين أن أميركا وأوروبا تحاربان تياراً إسلامياً أصولياً واحداً له معالم بارزة، والحقيقة أن هذه الدول تحارب كل ما يبرز المسلمين بأنهم أمّة من دون الناس وصدق الله العظيم **(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)** [الأنبياء ٩٢] وأن هذه الدول لن يهدأ لها بال طالما أن المسلمين هناك متمسكون بإسلامهم الحقيقي.

رابعا: إن دعاة حوار الحضارات المنظرين لسياسة الدمج قد تخلّوا عن الإسلام كمشروع سياسي عالمي يجب أن يطبقه المسلمون في جميع شؤون حياتهم، وأن يحملوه لإخراج العالم من الظلمات إلى النور، ولذلك ساروا في ركب الحكام الذين يسوسون الناس بغير ما أنزل الله، وبالتالي انتهجوا سياسة التشكيك في الثوابت الشرعية التي تتعارض مع سياستهم، لقد أقروا سياسة دمج الجاليات الإسلامية، ثم عمدوا إلى ليّ أعناق الأدلة لتنسجم مع ما ذهبوا إليه، بل وصل الأمر بهم إلى إهمال الأدلة والأخذ بفقه الواقع وفقه الموازنات.

أمام هذه التحديات الجسام يقع على كاهل المسلمين في أوروبا دور كبير في إرساء دعائم المشروع الإسلامي العالمي المتمثل بإقامة دولة الخلافة الراشدة الثانية التي بشر بها رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ويكون ذلك من خلال:

أولاً :أن يعتزّ المسلمون في البلاد الأوروبية بعقيدتهم وأحكام دينهم، وأن يظهروا هذا الاعتزاز ويبينوا لغيرهم من الشعوب في بلاد الغرب أن لا نجاة للبشرية من الرأسمالية الجشعة التي سلبت الشعوب وقتلت الأطفال والشيوخ وامتهنت الكرامات وتنكرت للقيم والمثل التي وضعها مفكروها إلا الإسلام، ضاربين عرض الحائط توصيات دعاة الدمج المتمثلة بإظهار التذلل الفكري لأهل العقائد الباطلة واسترضائهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: **(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)** [الإسراء ٧٤] ويقول سبحانه **: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)** [القلم].

ثانياً: عليهم أن لا يأبهوا لردّات الفعل عند السياسيين الغربيين طالما أنهم ينتهجون الأسلوب الفكري ودحض الحجة بالحجة .والإتيان بالدليل والبرهان بعيداً عن أي عمل مادي، اقتداءً بالرسول عليه الصلاة والسلام.

ثالثاً: أن يتواصلوا مع أمتهم في البلاد الإسلامية معتبرين تواجدهم في الدول الغربية تواجداً طارئاً عرضياً فرضته ظروف قاسية ومؤامرات مبرمة من ساسة الغرب وحكام المسلمين وبطانتهم، وبأن هذه الظروف زائلة عما قريب إن شاء الله حين تأخذ الأمة زمام أمورها وتساس ذاتياً من أبنائها المخلصين، ولعل لهؤلاء المسلمين دوراً هاماً في عملية دمج الأقطار المختلفة إلى دولة الخلافة حال قيامها، كونهم من سائر بلاد المسلمين التي مزّقتها الحدود المصطنعة وقسّمتها إلى دويلات.

رابعاً :أن يدركوا أن دعوتهم للاندماج في المجتمعات الغربية دعوة مشبوهة، ولدت من رحم المفكرين الغربيين، وتبناها حكام المسلمين، وسوّقها بعض العلماء والدعاة على غير هدى وبصيرة ووعي سياسي وشرعي، وأن عمل هذه الجاليات الأصلي يجب أن ينصبّ على بناء دولة الإسلام والنهوض بها حال قيامها، وبالتالي فإن على العلماء في كافة التخصصات، وعلى الخبراء الذين اكتسبوا المهارات المختلفة أن يكونوا على أهبة الاستعداد للنهوض بدولتهم -دولة الإسلام- وأن يكونوا مهيئين لهذا الدور بشكل دائم خاصة وأن الفرج بإذن الله قريب.
خامسا: أن يدركوا أنهم يشكلون ذخراً لأمتهم إذا ما ملكت زمام نفسها وتخلصت من ربقة الهيمنة الغربية، وأن رسالتهم في الحياة هي خدمة الإسلام والمسلمين لا خدمة الكفار والنهوض بمجتمعاتهم، خاصة وأنهم اعلنوا على المسلمين العداء، ودعموا أعداء الله اليهود، وأمدوهم بكل أسباب القوة والمنعة، واحتلوا الكثير من بلاد المسلمين، وسلبوا النفط والمعادن والخيرات، فلا بد من ترك هذه البلاد لتتدبر أمرها بنفسها.